

## توطئة

شاب وسيم، أشقر الشعر، مفعم بالحويوة والنشاط، متوجه إلى ردهة فندق ريتز كارلتون في مدينة تايسون كورنر، بولاية فيرجينيا. إنه إريك برنس، الذي بلغ من عمره ستة وثلاثين عاماً، وهو جندي سابق في قوات الصاعقة البحرية الأمريكية -سيل-<sup>1</sup>، والمالك الوحيد لشركة بلاك ووتر يو أس إيه، ووريث ثروة أسرة برنس، وربما يكون أقوى المناصرين المثيرين للجدل لخصخصة الجهاز الأمني. ومع أن المركز الرئيس لشركة بلاك ووتر يقع في منشأة للتدريب مقامة على أرض شاسعة تبلغ مساحتها سبعة آلاف أكر<sup>2</sup> في مدينة مويوك، بولاية نورث كارولينا، إلا أن برنس وجد أن من الأنسب أن يتخذ مكتباً له في مدينة تايسون كورنر؛ لكي يبقى على مقربة من البنتاغون ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.

تظهر وسائل الإعلام إريك بصورة الشخص المبهم المخايل المخادع. وهو ليس كذلك، ولكنه اكتسب هذه السمعة؛ لأنه كان يرفض دوماً طلبات وسائل الإعلام إجراء مقابلات معه. ونظراً لوجود عدد من الدعاوى القضائية المرفوعة على بلاك ووتر من قبل أسر عاملين سابقين في الشركة، تبرز حاجة قانونية إلى التزام السكوت والابتعاد عن مصائد الإعلام. ومع ذلك، وافق إريك على إجراء مقابلة معي. ولا أملك سوى التكهّن بأن مكوثي شهراً كاملاً برفقة أعضاء فريق بلاك ووتر الأمني في دورياتهم على طريق مطار بغداد الدولي المهلك، إضافة إلى حضوري عدداً من المناسبات الاجتماعية التي رأيت فيها عن قرب، جعله يقتنع برغبتني المخلصة في فهم عالمه الخاص.

1- كلمة سيل وبالإنجليزية (SEAL) هي اختصار لعبارة «بحراً، جواً، أرضاً». (sea air land) وهي قوات أمريكية خاصة متخصصة في حرب العصابات وعمليات الكوماندوز ومقاومة العصيان. وقد ورد في الكتاب ذكر لوحدة أخرى في الجيش الأمريكي من هذا القبيل، منها قوات المظليين البحرية وسنطلق عليها اسمها الشائع وهو المارينز؛ هناك قوات الجواله وسيطلع عليها في هذا الكتاب قوات الرينجرز؛ بالإضافة إلى القوات الخاصة أو البوريات الخضر.

2- أي ما يساوي 28 كلم مربع تقريباً، أو 28 ألف دونم.

لقد أتحت لي عبر عقود من الحلّ والترحال في المناطق التي مزقتها الحروب فرصة ممالحة عدد من الأثرياء الملاك للجيوش الخاصة. غير أن إريك هو الوحيد من بينهم الذي قابلته في حجرة الجلوس الفارهة في فندق ريتز كارلتون. وقد خطر في بالي وأنا جالس تجاهه مراقباً سلوكه النشيط المتفائل، أنه لا أحد من الموجودين في ردهة الفندق يمكنه أن يخمن مهنة إريك الحقيقية. والمرة الوحيدة التي قاطع فيها ارتجاج هاتفه الخلوي، الذي لم يتوقف، كانت حين جاءته مكالمة من «الرئيس الكبير»، أي زوجه.

ولدى إريك كثير من الأسباب التي تدفعه إلى التفاؤل والحيور، ففي السنوات الخمس الماضية، نمت شركته حديثة التأسيس من مجرد شركة «لتصنيع أهداف للرماية» إلى أنجح شركة رائدة في تقديم التدريب الأمني والحرس المسلح. وامتد نشاط عملياته بلاك ووتر من مدينة نيو أورلينز في الولايات المتحدة إلى أفغانستان، ومن أذربيجان إلى العراق. ومع بداية عام 2006، كان لدى برنس ثماني مئة عنصر يعملون في العراق، ومئات آخرون يقودون الطائرات، ويوفرون الحماية الشخصية، وحراسة المنشآت، وتدريب الجنود حول العالم. وييدي إريك تحمساً شديداً لأكاديمية بلاك ووتر الجديدة، التي ستقوم بتعبئة وتجنيد، ونشر جيش مؤلف من ألف شخص، وهي «الخطوة الثانية» التي يروج لها للارتقاء بشركته إلى مستوى أعلى. ويخضع المنتسبون إلى هذه الأكاديمية لبرنامج شاق منهك من التدريب واختبار اللياقة، ويعفى الذين يخفقون في اجتيازه من الرسوم والمصاريف؛ أما الذين يجتازونه، فيعوضون عما دفعوه من رسوم بضمنان توظيفهم في بلاك ووتر. وحتى خريف عام 2006، أشارت الأرقام إلى أن بلاك ووتر عازمة على تدريب خمسة وثلاثين ألف رجل في السنة القادمة، وقامت بنشر ما يربو على ألف وثمان مئة عنصر في سبع دول. ويميل برنس إلى تشبيه علاقة بلاك ووتر بالمؤسسة العسكرية التقليدية بعلاقة شركة فداكس بمصلحة البريد الأمريكي - من حيث إنها حل ناجح فاعل مخصص للبيروقراطية الحكومية المتصلبة والمبذرة.

وعقب الرواج الكبير الذي طرأ على خدمات شركات الأمن الخاصة في حقبة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، تمكن برنس من تحقيق أقصى ما يمكن تحقيقه من فطنته المهنية. وحين يتحدث عن قدوته ومثاله الأعلى في العمل، فإنه لا يستشهد بجندي شهير، أو

رائد من رواد المرتزقة، أو أحد القراصنة؛ بل برجل أعمال هو ألفريد سلون، الرجل الذي بنى شركة جنرال موتورز لتصبح واحدة من كبريات الشركات وأكثرها ربحاً في العالم. وقد بدأت إمبراطورية المال التي تعود لأسرة برنس بداية متواضعة بالشركة التي أسسها أبوه، وهي الشركة التي اخترعت المرآة المضاءة التي توضع على واقية الشمس المستخدمة في السيارات أمام مقعد السائق والمقعد المجاور له. ثم نمت الشركة مع التوسع في نشاطها على يد والده.

ومن الواضح أن إريك هو نتاج التربية التي تلقاها في تلك الأسرة: «كان عمل أسرتي متخصصاً بتزويد لوازم السيارات، وهو أكثر الأعمال التنافسية المسعورة في العالم». وكان جلّ تركيز أبي منصباً على النوعية، والكم، وإرضاء العملاء. وكانت هذه الأمور مدار حديث الأسرة حول مائدة العشاء. وبالتركيز على هذه القيم، يعتقد إريك أن بإمكانه أن يقدم جيشاً أخف حملاً، وأسرع حركة، وأذكى أداءً، دون تطلب أعباء دعم البنية التحتية التي تتطلبها الجيوش التقليدية.

ونتيجة للجهود التي كانت تدفع باتجاه خصخصة الخدمات المساندة للجيش التي بدأت في تسعينيات القرن الماضي، أدركت حكومة الولايات المتحدة أن توظيف القطاع الخاص لحل المشكلات، يمكن أن يكون أقل كلفة من وضع حلول تعتمد على بيروقراطيات ضخمة. وكما حدث فعلاً، فإن إريك كان يجد دوماً داخل وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، وفي وزارة الخارجية، والبنتاغون جمهوراً متحمساً مصغياً لعروضه القائمة على الحلول العملية وعلى المصاريف الثابتة. وفي الوقت نفسه، يدرك إريك عدم تحمس الرأي العام لدعم ما يمكن عدّه جيشاً من «المرتزقة» لحل مشكلات العالم. ويعي برنس الذي لا يتردد في إظهار نزعته الحربية، وقيمه الأسرية المحافظة، وتبعيته العمياء للحزب الجمهوري، أن أفكاره لا تحظى بتأييد كل الناس، ويعترف كذلك أنه حين يخاطب زبناً وعمراً من الناس، فإن أمامه مهمة ليست سهلة في إقناعهم.

ويوجد لدى إريك حجة جاهزة للتصدي لوصمة «المرتزقة» والتصورات السلبية التي غالباً ما ترافقها. وقد بدأ حديثه بتذكيري أن الثورة الأمريكية ما كان لها لتنجح لولا قوات الميليشيات الخاصة التي أنشأها ملاك المزارع الأثرياء. وينظر إريك إلى دور بلاك ووتر

في الشؤون الدولية بأنه شبيه بالدور الذي أداه كل من: بارون فان ستيوين<sup>1</sup>، وكاسياسكو<sup>2</sup>، وروتشامبو<sup>3</sup>، ولافاييت<sup>4</sup>، من حيث كونهم جنوداً مغانم ساعدوا الأمريكيين العاديين على محاربة الجيش البريطاني الذي كان على درجة عالية من التسليح والتدريب. ويهوى كذلك الإشارة إلى أن استعانة الجيش الأمريكي بـ «المتعاقدين» يعود إلى عهد الحرب العالمية الثانية، حين استخدم الجيش الأمريكي «النمور الطائرة» - وهي مجموعة من الأمريكيين جرى تمويلهم سراً، وكانوا يقودون طائراتهم تحت شعار شركة كلير لي تشينولتز المعروفة اختصاراً بشركة كامكو. وأسقط النمور عدداً من الطائرات اليابانية وأصابوا أهدافاً أخرى في البنية التحتية اليابانية، وكانوا يتقاضون أجراً يعادل ثلاثة أضعاف ما يتلقاه الطيار العادي، إضافة إلى مكافأة مجزية عن كل طائرة يسقطونها.

هذه الأمثلة التي ضربها برنس تتجاوز الوظائف التي تؤديها الشركات الأمنية الخاصة المتعاقدة مع البنتاغون، التي تعمل في العراق أو أفغانستان، ولكنها تفصح عن تطلعات برنس. فالمعنى التقليدي «لقوات الأمن» هو رجال مدربون يحرسون الأشخاص أو الأماكن أو الأشياء، لكن برنس يريد أن يقدم المزيد. وبموجب خطوته التوسعية الثانية، يسعى إريك إلى أن يوسع من نشاط الأمم المتحدة في مجال ترتيبات حفظ السلام لتشمل قواته العسكرية الخاصة. وبحسب ما يقوله برنس، فإن الأمم المتحدة هي منظمة تنفق

1- ضابط ألماني، ولد في بروسيا عام 1730، وتوفي في نيويورك في الولايات المتحدة عام 1794 اسمه بالمولد فريدريك ويلهم لودولف غيرهارد أوغسطين فون ستيوين، وربما حصل على لقب بارون بعد مشاركته في حرب السنوات السبع بين إنجلترا وبروسيا من جهة ضد فرنسا والنمسا (1756-1763). قدم إلى الولايات المتحدة عام 1777، بعد أن تقاعد من الخدمة العسكرية في الجيش البروسي ليشترك في حرب الاستقلال الأمريكية ضد الإنجليز، وعمل على تحويل الجيش الثوري إلى قوات نظامية. (بتصرف عن الموسوعة البريطانية 2008، شيكاغو).

2- جنرال بولندي قاتل إلى جانب الثوار الأمريكيين ضد الإنجليز في حرب الاستقلال، وعاد إلى وطنه بولندا ليشترك في حرب استقلال بولندا عن روسيا.

3- جنرال فرنسي كان يتولى قيادة وحدة عسكرية مكونة من ستة آلاف جندي فرنسي متمركزة في أمريكا الشمالية شاركت في القتال إلى جانب الثوار الأمريكيين في حرب الاستقلال عن التاج البريطاني.

4- جندي ورجل سياسة فرنسي الأصل من الطبقة الأرستقراطية، كان ضمن الطاقم المساعد لجورج واشنطن في الثورة الأمريكية، وقاتل إلى جانب الثورة في حرب الاستقلال الأمريكية.

70% من ميزانيتها البالغة 10 مليارات دولار على مَهَمات حفظ السلام، وهي مَهمة تضاعفت إلى أكثر من ضعفين في السنوات العشر الأخيرة. وبحسب رأيه، فإن ذراع حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة هي ذراع مكسورة في جسم ينخر فيه الفساد. إنها «خدعة تستخدم لتحويل الأموال إلى جيوش العالم الثالث التي تفتقر إلى الانضباط والتدريب والتجهيز».

قام برنس بتوظيف السفير كوفر بلاك في شركته، وهو موظف عمل في السابق لدى وزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، بغية الترويج للجيش الخاص التابع لبلاك ووتر في اللقاءات والاجتماعات التي يعقدها السفراء والدبلوماسيون الأجانب. وأعلن السفير بلاك في شهر آذار/ مارس من عام 2006، أمام جمهور الحضور في معرض عمليات القوات الخاصة الذي عقد في العاصمة الأردنية عمان، أن باستطاعة شركة بلاك ووتر أن تنشر قوة بحجم لواء بسرعة عالية وكلفة زهيدة نسبياً. وقال بلاك: «إن القضية هي من هو الطرف الذي سيسمح لنا باللعب ضمن فريقه»، ثم أورد موضحاً تلك العبارة بقوله: «إن بإمكاننا أن نحصل على موافقة الحكومة الأمريكية على كل شيء نقدمه لأصدقائنا وراء البحار».

يملك إريك برنس المقدرة على نشر لواء مسلح مؤلف من جنود مختصين تابعين له، أو كما يحلوه أن يسميه «النجدة ذات الأنياب»<sup>1</sup>، وهو جيش مؤلف من ألف وسبع مئة رجل مدربين ومزودين بقوة جوية من طائرات مروحية وطائرات نقل. ومن يملك المال بإمكانه استئجار «دعم نارٍ» كامل بما في ذلك الطائرات المزودة بالمدفعية، وطائرات التجسس، وطائرات الاستطلاع الجوي، والطائرات المروحية المسلحة، والعربات المصفحة، والطائرات التي تعمل دون طيار وتوجه عن بعد، وطائرات الهجوم السريعة المزودة بقذائف الهجوم المباشر الموجهة، أو بالقنابل العنقودية. وسيكون هناك وحدات هندسية وإنشائية، وطبية، وتوريد ومؤن، إضافة إلى وحدات قتالية، موزعة بمعدل ضابط غربي متدرب تدريباً مهنيّاً لكل عشرة من جنود المشاة المستخدمين من دول العالم الثالث

1- فقدت التسمية مع الترجمة سجعها الإنجليزي الذي نجده في الشعارات والأمثال، وهو سبب شيوعها، وعبارة المؤلف الأصلية هي (Relief with Teeth).

العاملين في الشركة. ويشترط إريك أن يكون عملاؤه من حلفاء أمريكية، وأن تسترجع بلاك ووتر معداتها ذات التقنية العالية إلى مقرها الرئيس بعد انقضاء العقد. وفي الوقت الذي يطوّر فيه إريك هذه القدرات، فإنه لا يناقش إن كان هناك زبائن لخدماته الجديدة أم لا.

وفي معرض وصفه للنموذج الذي استخدمه في تنظيم قواته الخاصة، يستشهد إريك بهيكل تقليدي لقيادة عمليات المرتزقة كالذي استخدمته شركة النتائج التنفيذية<sup>1</sup> التي كانت تعمل في جمهورية جنوب إفريقية. ويكثر إريك من الإطراء على شركة النتائج التنفيذية على تدخلها الفاعل الذي وضع حداً للنزاع الدموي الذي وقع في سيراليون وأنغولا. ولكنه لا يذكر شيئاً عن قيام البرلمان في جنوب إفريقية بحظر تلك الشركة، ولا عن وصمة العار التي لحقت بها من جراء قيام أصحابها وعملائها باستخدامها أداة للاستيلاء على الموارد الطبيعية التي تدر أرباحاً طائلة.

وثمة فرق كبير بين المضامين الأخلاقية والقانونية لنشاطات شركة النتائج التنفيذية حين نقارنها بتطلعات بلاك ووتر، مع أن المنشأتين تتعان في النطاق العسكري الخاص نفسه.

ولتوضيح هذه الفكرة بعبارة مبسطة أقول: إن المرتزقة هم جنود يعرضون خدماتهم مقابل أجر، أما الجيش الخاص أو المتعاقدون «الأمنيون» فهم حراس أمن يعرضون خدماتهم مقابل أجر. والمرتزقة يتقاضون أجرهم للإطاحة برؤساء دول وقواعد عسكرية، وسفن حربية معرضة للهجوم على يد قرصنة، وحقول نفط، ومناجم ماس ومعادن، وبرامج تابعة لمنظمات غير حكومية، إضافة إلى أعمال الإنقاذ والحماية في مدينة نيو أورلينز الأمريكية عقب الإعصار الذي عصف بها. ومع ذلك، فإن أكبر سوق للخدمات التي تقدمها الشركات الأمنية (والبوتقة التي صهرت الأحداث الجسام التي أوجدت تلك الصناعة) بلا منازع هي العراق في عهد ما بعد الاجتياح الأمريكي؛ حيث كان الاستمرار في محاولات إعادة البناء في الوقت الذي تتطير فيه العيارات النارية من

1- Executive Outcomes.

كل حذب وصوب تعتمد على مستوى الأمن الذي يمكن المحافظة عليه. وقدم المتعاقدون الأمنيون الحماية لبول بريمر، وجون نيغروبونتي، وسلطة التحالف المؤقتة، ومشروعات إعادة الإعمار الحكومية منها والتجارية، ولأنابيب النفط. وأصبح مألوفاً مشهد الحرس التابعين للشركات الأمنية الخاصة الذين يقومون بحماية قوافل الدبلوماسيين، ورجال الأعمال، والصحافيين (ومستلزماتهم) في تحركاتها من مكان إلى آخر. وكما تبين من الأحداث أن رحلة سريعة لجلب بعض معدات الطهو يمكن أن تسفر عن اشتباك مسلح، كما حدث حين قتل أربعة عناصر من المتعاقدين الأمنيين العاملين من شركة بلاك ووتر ومُثل بجثثهم أمام الملاء، وعلّقوا فوق جسر في الفلوجة في مارس من عام 2004. وقد دفع ذلك الحدث وسائل الإعلام إلى تسليط الضوء على الدور الذي يؤديه المتعاقدون العسكريون التابعون للقطاع الخاص، وهو ما نشأ عنه جدل حول دور المدنيين في مناطق الحرب، وحول الفرق بين المتعاقدين الأمنيين وبين المرتزقة.

المرتزقة يقاتلون، في حين يقدم المتعاقدون الأمنيون بالحماية، ولا يطلقون النار إلا إذا تعرضوا هم أنفسهم أو من يحمونه إلى الهجوم، وذلك إلى أن ينسحبوا إلى مكان آمن. هذا هو -على الأقل- الخط الفاصل الذي يفترض وجوده بين المرتزقة والمتعاقدين الأمنيين. بيد أن أصحاب المشروعات التجارية التي تعمل في هذا القطاع مثل إريك برنس يدفعون باتجاه فتح أسواق جديدة لمنتجاتهم الأمنية، وسيطراً نتيجة لذلك -وبحكم المؤكد- مزيد من الغموض على هذا الخط الفاصل المفترض الذي يعاني في الأصل من عدم الوضوح. بل إن بعض النقاد يجادلون بأن هذا الخط الفاصل غير موجود أصلاً.

لقد أمضيت أكثر شبابي أتتبع نشاطات المرتزقة والجنود الذين يعرضون خدماتهم مقابل أجر. وفي عام 1975، قمت بلسق ثلاث خرائط طرق للقارة الإفريقية على الحائط في شقتي السكنية لتتبع تقدم العقيد كالان وعصيته المنحوسة من المرتزقة في أنغولا. وفي أواخر تسعينيات القرن الماضي، كان لي أول لقاء مع شخص، كان من المرتزقة ثم أصبح متعاقداً أمنياً، هو كوبوس كلاسينس، الذي كان يعمل مع شركة النتائج التنفيذية. وما تعلمته من كوبوس هو أن الفرق بين المرتزقة والمتعهد الأمني يعتمد على الشخص نفسه لا على الوظيفة. ويكمن الرادع الأخلاقي الأسمى عند هؤلاء الأشخاص في نظرتهم هم

إلى أنفسهم، وليس في نظرة العالم إليهم. وحين التقيت بأول متعاقد أمني، وقد كان يعمل ضمن مهمة سرية تمويلها وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية لتعقب ابن لادن في المناطق الحدودية لأفغانستان، أدركت أننا قد نكون على أعتاب تحوّل مفاجئ في أساليب الحرب الحديثة، أو ربما عودة إلى العهد البائد لأعمال القرصنة المرخصة من الدول، ومتعقبي الأشخاص المطلوبين للعدالة، للحصول على المكافأة المالية لمن يأتي بهم.

واستجابة للرغبة الملحة التي وجدتها في نفسي لتفهم هذه الظاهرة، عقدت العزم على شد الرحال وخوض غمار هذا العالم المغلق، من أخطّ مراتبه إلى أعلى قممه وأكثرها احتراماً. وفي الصفحات الآتية وصف لهذه الرحلة. وليس المقصد من هذا الكتاب أن يكون شاملاً لهذا الموضوع من كل أطرافه، فهو ليس مرجعاً أكاديمياً يعالج بالتفصيل الجوانب كلها المتعلقة بالقضايا التي يثيرها هذا التطور الجديد في الحرب. فعلى سبيل المثال، لم أتعرض لقضية التلاعب الذي يحدث في عملية طرح عطاءات الشركات الأمنية؛ لأن وسائل الإعلام قامت بعمل وافٍ لتغطية مثل هذه المخالفات. ومع ذلك، فقد تعلمت الكثير في رحلاتي - عن الرجال الذين اختاروا هذه المهنة، وعن العمل الذي عليهم أدائه، وعن الأحداث التي كانت نقاط تحوّل في تاريخهم، والمشكلات الكبرى التي أفرزها نمو هذه الصناعة، والتنبؤات التي يمكن أن يقدمها كل ذلك عن المستقبل - وقد رأيت أن من الأهمية بمكان أن أضع هذه التجربة والخبرة التي اكتسبتها في متناول القارئ المهتم. ولست أحاول، في الصفحات الآتية، أن أقول للقارئ: كيف يفكر؛ بل أدعوه إلى مرافقتي في هذه الرحلة ليشاهد منظومة عريضة من الشخصيات ووقائع الأحداث. ومقصدي الوحيد هو أن أرشد القارئ إلى فهم جديد حول إمكان استغلال هؤلاء الأفراد وتلك الشركات في المستقبل بوصفها قوة للخير أو للشر.



## المقدمة

## السير بشدة

«يوم جديد، ومهمة جديدة»

- افتتاحية ملخص التعليمات المقدمة لأفراد  
فريق الممبة التابع لشركة بلاك ووتر

كان الذباب المنتشر في المطار مثيراً للسخط. صرَّخَ غريز بصوت مرتفع «تباً! اللعنة!»، وكان يزداد حنقاً في كل مرة يخفق فيها في الإمساك بواحدة منه. وثمة سبب آخر لسخط غريز وهو أنه قبل مدة من الزمن حلق رأسه وحتى الآن لم تظهر أي بادرة لعودة نمو شعره. وكان زميله مياغبي يطلب منه أن يُهدِّئ من روعه. اكتسب غريز هذا اللقب<sup>1</sup> نسبة إلى الدب الأشيب الذي يعيش في منطقة شمال غربي الساحل المحاذي للمحيط الهادئ من القارة الأمريكية التي ينحدر منها غريز. ولقد خدم غريز في السابق في قوات المارينز، ولكنه يفتقر إلى مهارة اصطياد الذباب الذي يحاول اقتحام فمه وأنفه. وفي خطوة غير عادية في التعبير عن تقديره للشركة التي يعمل فيها، قام غريز بدق وشم كبير خلف عضلة ساعده المفتولة يمثل شعار شركة بلاك ووتر - المكون من برائن دب بارزة داخل دائرة تمثل هدف قنّاصة، ويحاكي هذا الشعار الدب الأسود الذي يجوب المنطقة الممتدة على مدى 24 كيلومتراً مربعاً في منطقة المستنقعات الموحشة العظمى في السهول الساحلية في جنوب شرق ولاية فيرجينيا وشمال شرقي كارولينا الشمالية. وكثيراً ما يظهر هذا الشعار في الأماكن التي يتوقع أن يُشاهد فيها العَلم الأمريكي على الرجال المسلحين والعربات المصفحة في العراق.

وصل فريق الحراسة الشخصية التابع لشركة بلاك ووتر المؤلف من اثني عشر شخصاً إلى مطار بغداد الدولي لمراقبة فوج جديد من زملائهم العاملين في الشركة

1- غريز هي اختصار لكلمة غرزلي التي تعني بالإنجليزية الأشيب.

قادم من عمان ليحلوا محل زملائهم في عملية تبديل روتينية. ومع اقتراب الرحلات الجوية القادمة على اثنتين فقط، فإن المطار الضخم ذا التصميم المعماري الأوروبي الجديد تطفئ عليه أجواء الهدوء المخيف لواجهة مسرح مهجور لتصوير الأفلام، فهو واحة معزولة خارج حدود واقع العنف في بغداد.

وانتظار قدوم الطائرة ينبئ عن شعور أشبه ما يكون باستراحة قصيرة جداً من الأمن بين رحلة الذهاب والإياب المحفوفة بالمخاطر الشديدة من المنطقة الخضراء إلى المطار، والعودة على طريق المطار الذي أصبح يشتهر باسم جديد هو «الدرب الأيرلندي»<sup>1</sup> أو «درب العبوات الناسفة». كان التوتر شديداً في هذا اليوم بالذات؛ إذ أعلن في الموجز الصباحي أنه وقع في غضون الثماني والأربعين ساعة الماضية ستة عشر هجوماً على طول الطريق الممتد أربعة أميال. ويسلك الفريق التابع لشركة بلاك ووتر الذي يعرف باسم فريق الممبة<sup>2</sup> هذا الطريق كل يوم ذهاباً وإياباً، يضطر فيها إلى السير بسرعة وشدة على الطريق تقادياً لنيران الرشاشات أو الألغام الأرضية التي تضعها المقاومة العراقية مستهدفة بها قوافل الجنود الأمريكيين.

ولا يخالط أعضاء فريق الممبة فرق الحراسة الأمنية الأخرى التي تتمركز في موقف السيارات القريب من المطار؛ إذ يُعدّ التساهل في التركيز من بوادر الشؤم، كما أنه ليس من اللائق التودد إلى الشركات الأمنية الأخرى. وقد جرت عادة فريق الممبة التابع لبلاك ووتر تحقير الشركات الأمنية الأخرى -تربل كانوبي، وإم في إم (M.V.M)، ويو إس أي إس (U.S.I.S)، ودينكورب- كما يفعل أعضاء فريق كرة القدم حين يسخرون من الفرق

1- اعتاد جنود الجيش الأمريكي المتمركزون خارج بلادهم أن يسموا المناطق والمعالم الجديدة التي يشاهدونها بأسماء تعكس أسماء معالم مشابهة في بلادهم أو بأسماء فرق رياضية مشهورة كما سيتبين في ثنايا هذا الكتاب. وتسمية الدرب الأيرلندي جاءت من اسم فريق كرة القدم الأمريكية في جامعة نوتردام الذي كان يطلق عليه فريق المقاتلين الأيرلنديين. كما أطلقوا على طرق أخرى في بغداد أسماء فرق رياضية أخرى مشهورة. (موسوعة ويكيبيديا).

2- جاءت هذه التسمية نسبة إلى عربات الممبة البيضاء المصفحة التي تصنع في جنوب إفريقيا التي يستخدمها العاملون في بلاك ووتر في تقلاتهم. وكلمة ممبة في الأصل تطلق على أفعى إفريقية ذات سم قاتل في اللغات الإفريقية المحلية.

المنافسة الأخرى. وكلهم يومئون برؤوسهم تعبيراً عن الاعتراف بوجود الطرف الآخر، وغالباً ما يجري ذلك بهمسة غير مسموعة من الشتيمة والتحقير، غير أن ذلك هو أبعد ما يمكن أن يصل إليه التخاطب بينهم.

يبقى تي بوي وحده بعيداً محتفظاً بمسافة بينه وبين الأشياء التي من حوله، وهي خطوة يطلق عليها هو «تحديد النطاق»، مركزاً على المخاطر التي تحيط برحلة العودة إلى المنطقة الخضراء. ويبدو أن تي بوي يتبنى أسلوباً يعكس النظرة العامة للموت: خوذة سوداء، وقميصاً أسود، وقناعاً أسود، ونظارات شمسية سوداء، إضافة إلى جمجمة كبيرة وعظمتين تحتها على شكل إشارة X مطبوعة على ظهر سترته الواقية من الرصاص، ورسماً مشابهاً آخر على خوذته الواقية من الرصاص من نوع كيلفر. وكل هذه التجهيزات تغطي وُشوم<sup>1</sup> الجمجمة الموجودة على جسمه. ويتقدم تي بوي المجموعة مسلحاً برشاش بي كي إم (P.K.M) وعليه أن يبقى متيقظاً؛ لأن المقاومة العراقية قد بدأت في توظيف تكتيك جديد يقوم على تجاوز القافلة ثم الإبطاء فجأة لضرب القافلة العسكرية من المقدمة. ويرفض أن يضع سلاحه إلا بعد العودة إلى مقر الفريق.

أما بان، وهو جندي سابق في القوات الخاصة النيوزلندية (كيوي ساس)، فقد توجه هو وغيكو إلى السوق الحرة في المطار لشراء بعض المشروبات الغازية، في حين جلس كل من 86<sup>2</sup> وبغداداي، وكريتر والبقية يتحدثون. ينحدر 86 ذو الشعر الأشقر المنفوش من ولاية ميسيسيبي، وهو جندي سابق في قوات المارينز، وله سواعد مفتولة محاطة بوشوم قبلية سوداء، ويجب لبس قبعة متسخة بالية ونظارات طيران شمسية كبيرة من طراز ري بان.

1- جمع وشم، وهو ما يدق على الجلد من رسوم وصور وأشكال.

2- يستخدم هذا الرقم ملفوظاً بصيغة فعل ويتصرف بتصريف الأفعال للدلالة على معنيين هما الطرد والإبعاد، وكذلك رفض تقديم الخدمة. أما كيف أصبح هذا الرقم يحمل هذه الدلالة اللغوية، فأقرب التفسيرات تردده إلى عنوان مطعم وبار يدعى تشوملي، ويقع على 86 بدفورك ستريت، في مدينة غرينويتش في ولاية نيويورك. ومن البدهي أن هذا المطعم كان يرفض تقديم خدماته لفئة معينة من الناس هم السود، علماً بأن هذا الاستخدام دخل القاموس الإنجليزي عام 1959، وهي مدة كان التمييز العنصري في الولايات المتحدة ضد السود يمارس في العلن، ويرد بعضهم هذا الاستخدام إلى سجع هذه الكلمة مع كلمة نكس (nix) التي تعني الرفض، والتفسير الأول أرجح للاعتبارات التاريخية. والله أعلم.

ولقد حصل على هذا اللقب 86 لأنه طرد من المفزة الأمنية التابعة لوزارة الخارجية بعد أن دققوا في سجله وسحبوا منه التصاريح الأمنية التي أعطيت له، وهذا اللقب هو نكتة قديمة، ونظراً إلى كونه الشخص الوحيد المنحدر من الوسط الأمريكي في الفريق، فإن 86 لا يعدم تهكم زملائه في الفريق من حين لآخر.

ويبقى خوان، ذو الأصل المكسيكي، والشعر الداكن، والابتسامة العريضة التي لا تفارق وجهه، وهو من مدينة إلباسو، يبقى على مقربة من العناصر التشيلية في الفريق، يتحدثون ويتبادلون النكات باللغة الإسبانية. وهؤلاء التشيليون هم جنود سابقون من عهد الطاغية بينوتشي، التحقوا ببلانك ووتر بوصفهم مواطني دولة ثالثة عن طريق غروبو تاكتيكو. ويتقاضى الواحد منهم 2.400 دولار في الشهر للقيام بأعمال «ثابتة» - أغلبها حماية مقر بلاك ووتر في المنطقة الخضراء، ويجري أحياناً الاستعانة بالضباط السابقين المتميزين ممن هم في أواخر الثلاثين وبداية الأربعين من أعمارهم للقيام بدوريات الممبة حين يكون هناك نقص في عدد الرجال، أو حين يشعرون بالضجر.

أما توول، ذو الشعر الأحمر، الجندي السابق في المارينز، الخبير بإصلاح السيارات والآلات، فيستغل أوقات الانتظار في فحص سيارات الممبة للتيقن من خلوها من الأعطال الفنية. وعربات الممبة هي من صنع جنوب إفريقية، مصممة لتحمل انفجار الأنغام وتقديم حماية من نيران القناصة - وتتفوق على العربية التي تصنعها شركة جي إم سي (G.M.C) من نوع سوبربان أو سيارة بي إم دبليو (B.M.W) المصنفة من الفئة السابعة. أما مساوئها فأولها بطء حركتها، وثقل وزنها، وتبدو قافلته وكأنها موكب من فيلة سيرك بيضاء تمشي بخطأ متناقلة وعلى ظهرها رجال يلبسون الخوذات الفولاذية، وتظهر أسلحتهم من فتحاتها العلوية الخمس، ولكنها ليست بالسباحات المتوارية عن الأنظار في بحر يعج بأسماك القرش.

يتولى مياغي، الذي حصل على هذا اللقب الذي يخاطب به عبر أجهزة اللاسلكي، لأنه يشبه بات موريشا الذي يمثل في أفلام طفل الكراتيه؛ ولحاجته إلى استخدام نظارات ثخينة للقراءة، عند قيادة القافلة إلى المقدمة. وهو شرطي سابق كان يعمل في القسم الذي تكثر فيه الجريمة من مدينة لوس أنجلوس، وهو يتحدث بلهجة مكسيكية

هادئة. ويلبس وشاحاً خمرياً أرسلته إليه زوجه لجلب الحظ، وهو قصير القامة، يختلط السواد والبياض في لحيته، وتتدلى أسلحته وعتاده عن كتفه، وتبدو عليه ملامح الارتياح التي نلاحظها عادة في العاملين في الشركات الأمنية الخاصة. وهذا الفريق بمجموعه يبدو وكأنه مجموعة من الممثلين الذين يمثلون فيلماً زهيد الميزانية عن المرتزقة. يقول مياغي واصفاً المظهر الذي يسعى المتعهدون الأمنيون إلى تحقيقه: أخي، إننا نسميها سي دي آي - الفتيات يعشقنها. وحين ندخل المطار وننظر إلى أنفسنا عبر مرآيا النوافذ، نهتف جميعاً قائلين: «هيه، يا رفاق، سي دي آي». وضحك أعضاء الفريق.

ويتابع مياغي قوله، «ونستخدم كذلك عبارة أنت حاذق رائع»

فيرد عليه غريز مؤشراً بإصبعه إشارة مبالغاً فيها، «لا، بل أنت الحاذق الرائع!»

ثم يرد مياغي مجيباً: «لا لا، بل أنت الحاذق الرائع!» وضحك الآخرون. فهم يعلمون أن مياغي يحاول استشارة الشخص الجديد بهذه الكليشية التي تقول: إن المتعاقدين الأمنيين هم من رعاة البقر المغرورين.

عاد غيكو، وهو شاب، مربع الجسم، حليق الرأس، عمل في السابق في قوات المارينز، حاملاً بيديه شراباً وطعاماً غنياً بالسعرات، فقيراً بالقيمة الغذائية اشتراه من السوق الحرة في المطار. وأخذ يترحم على الأيام التي كانوا يجوبون فيها المطار دون الحاجة إلى نزع أسلحتهم وعتادهم، وقال متذمراً وهو يخرج علب الكوكا كولا وقطع الشوكولاتة: «أما الآن فعليك أن تنزع كل أسلحتك لدخول السوق الحرة».

استمر غريز في محاولاته طرد الذباب العراقي محاولاً بكل جهده منع دخوله إلى علب الكوكا كولا. ونصحه مياغي ثانية بأن يهدئ من روعه، غير أن ترنيمة «تباً تباً تباً» كانت أساس بقية الحديث؛ لأن تلك الحشرات كانت تحسن الانفلات من قبضته الساخطة. والذباب هنا هو كعناصر المقاومة، منتشر في كل مكان، مثابر، وجزء من الحياة والموت - شيء إضافي آخر لجعل الأمور أكثر تعاسة وبؤساً في صندوق الرمال.

وصلت الطائرة أخيراً. ونزل ركاب الطائرة، وكان جلهم عراقيين يلبسون ملابس أنيقة، ويسحبون خلفهم حقائب جديدة ذات عجلات. وذهب العراقيون مع السائقين

المحليين، في حين تهيأ أفراد الحرس الشخصي التابعين للشركات الأمنية الخاصة لاستقبال الأجانب الغربيين، ثم سحبوهم إلى سيارات غير مرخصة من طراز بي إم دبليوو جي إم سي. وجرى إعداد خوذات، ودرع، وبنادق رشاشة من نوع إم 4 مع مخازن إضافية من الذخيرة لأعضاء الفريق الجدد الذين سيحلون محل الفريق القديم الذي جاء لاستقبالهم. وتمييز اللقاء بكثرة الترحاب، والعناق، ومقارعة البراجم، والربت على الأكتاف. وتلقوا جميعهم تعليمات سريعة من مياغي وهم يستقلون العربات المصفحة. حمل الجميع أسلحتهم، وعبئت الذخيرة، وجُهزت للاستعمال. وحين وقت الانطلاق، غير أن فريق الممبة تأخر عمداً. فعناصر المقاومة التي تراقب طريق المطار لديها ساعة من الوقت لتجهيز قواتها لتنفيذ هجوم على الطريق في أثناء عودتنا؛ لذلك ساندع الجماعات الأخرى تنطلق أولاً لتتلقى الضربة المتوقعة على طريق العودة إلى المنطقة الخضراء. ويرى الفريق أن لبسي الدرع الواقية من الرصاص والخوذة وحمل آلة التصوير بدلاً من البندقية شيئاً مثيراً للضحك. وذكروني بأن المقاومة، لو سحقت لها الفرصة، لن تتوانى لحظة في قتل كل فرد داخل العربة، وكل عربة في القافلة.

انطلقنا من مبنى المطار في تمام الساعة 2:30 لنبدأ رحلتنا باتجاه الجنوب في الطريق الذي يلتف حول المطار إلى البوابة الرئيسية. فنحن هنا «خضر» أي «في أمان». وسنتحول إلى «الأحمر» بعد مغادرة آخر نقطة للتفتيش في المطار ندخل في منطقة الخطر.

وفي الساعة 2:35 لوّحنا بأيدينا تحية لجنود الغورخا النيباليين العاملين في الجيش البريطاني، الذين يتولون حراسة بوابة المطار، وأبرزنا لهم علامة الإمدادات العسكرية، وخرجنا من منطقة الأمان النسبي في المطار. وعلى مخرج طريق المطار، ظهرت أمامنا لوحة تذكرنا بأن «كل الأسلحة حمراء»، وتعني أن التحذير قائم وأن الأمان غير مضمون. لا مجال للمزاح، وأعلن مياغي عبر اللاسلكي، «ليأخذ كل فرد مكانه»، وأطلق السائقون العنان للعربات، فانطلقت عربات الممبة عبر البوابات المفتوحة كأنها ثيران اندفعت من حظيرة سباق الرديولرعاة البقر، وظهر في الأفق أمامنا امتداد فسيح لأشجار نخيل محترقة ومقرّمة، ضخمة انفجارات سابقة، وتضيف اللوحة الكبيرة المتفائلة للانتخابات العراقية سخرية مروّعة على الخطر الذي يحيط باجتيازنا الوشيك لهذه المنطقة. وفي

الجانب المقابل هناك طريق فرعي رافد مزدحم على بعد 46 متراً تقريباً باتجاه موازٍ لنا، وفي المنطقة المتوسطة بيننا أرض بلاقع فيها هياكل سيارات بي إم دبليو متفحمة وآثار حرائق. ومع لحظة دخولنا منطقة الخطر، أصبحت المدخلات مركزة ومضغوطة؛ تتجلى الأحداث للعيان في حركة بطيئة، وتأخذ الأوامر المرسلة عبر جهاز اللاسلكي والردود القادمة منه صورة مختصرة. ونحن مانزال في حالة تسارع على الطريق، ولا توجد حركة للسيارات في الشارع الرئيس، «الطريق مُهيأ».

الساعة الآن تمام 2:37، ونحن نوشك على الاقتراب من أول جسر أماننا، ويسمى جسر «ج» أي «جهاد». بثَّ جهاز اللاسلكي العبارة الآتية: «تذكروا الموجز الذي صدر هذا الصباح. قالوا لنا: احذروا المتفجرات التي توضع تحت الجسور». أنعم الرجال النظر حولهم بحثاً عن القناصة، أو القذائف المتفجرة، أو العراقيين الذين يلقون القنابل اليدوية. «تمام!» ثم جاءت لحظة دخولنا الطريق السريع. حيث تتدفق السيارات ويزدحم السير على طريق المطار، وهي نقطة ساخنة سيئة السمعة، حيث يندس الذين يقومون بعمليات التفجير وسط الازدحام المروري ليفجروا أنفسهم.

صاح مياغي بالعربية: «امش!»، ملوحاً بقبضة يده خارج النافذة عدة مرات. تجاهل سائق السيارة إشارات. فانطلق وابل من الرصاص من البندقية الرشاشة على الشارع بمحاذاة السيارة. وحين تجاوزنا سيارته، كان الرجل وأسرته ينظرون إلينا وقد أخذ الذهول والخوف منهم كل مأخذ. كانت رائحة البارود الحادة تروح وتجيء. وأماننا الآن مخرج آخر وجسر آخر. أخرج جميع الواقفين في أبراج العربات المصفحة أسلحتهم وصوبوها تجاه الجسر في حركة متناغمة عجيبة كتناغم حركات راقصات الباليه: «كل شيء على ما يرام. الطريق سالك!».

ثم بثَّ جهاز اللاسلكي ثانية: «السيارات تتباطأ أماننا»، وأصبحنا على مشارف جسر آخر: «أمن الجسر!» فبرزت الأسلحة من أبراج العربات ووجهت نحو الجسر، ثم عدنا إلى حركة السير في تناغم كامل، وبدأت الحواجز البرتقالية تظهر في وسط الشارع. هل يحتمل وجود ألغام أرضية؟ أمعن المتعاقدون النظر في المكان بحثاً عن أشياء غير عادية. الساعة الآن 2:39. مزيد من السيارات متوجهة نحو الطريق السريع، لكن عربة الممبة

التي في المؤخرة كانت تبقى عليها بعيداً عن القافلة أو تجبرها على التوقف على جانب الطريق. ثم انبعثت نفحة من رائحة البارود. لا بد أن يكون تي-بوي قد أطلق النار من رشاش بي كي إم مرة أخرى.

ثم صاح 86 عبر جهاز اللاسلكي «اللجنة! ما هذا!». نظرنا إلى الأمام فرأينا مجموعة من النساء المتلفعات بالعباءات السوداء يقطعن الطريق السريع إلى الجهة الأخرى. صوبت البنادق جميعها إلى الأمام. هلعت النسوة من مشهد ثلاث عربات مصفحة ثقيلة بيضاء محملة بالرجال المدججين بالسلاح متجهة نحوهم، ففررن وهن مذعورات. إنذار كاذب. هل كان كذلك حقاً؟ لقد دأبت المقاومة على استخدام حيل لإرباك القوافل الأمنية، وحملها على تخفيف سرعتها أو التوقف لمهاجمتها.

ثم صاح غيكو محذراً من السيارات القادمة كما يحذر الظهير الخلفي بقية اللاعبين في لعبة كرة القدم الأمريكية: «سيارات مسرعة قادمة باتجاهنا، دقق في الركاب. سيارة قادمة نحونا... أربعة أشخاص في سيارة أجرة». ثم استخدم توول مرآة السيارة لمعرفة إن كان هناك سيارات مسرعة قادمة من الخلف. وعبرنا نصب صدام حسين. الساعة الآن 2:40. دخلنا إلى منطقة الموت. تظهر الرسوم البيانية الملونة باللون الأخضر، والبرتقالي، والأحمر الصادرة عن أجهزة الاستخبارات أن أكثر أعمال القتل تحدث في هذه المنطقة. اختلفت نبرة الصوت عبر أجهزة الاتصال اللاسلكي. «انتبه!» أمامنا مخرج آخر. كانت الرؤية محجوبة بالأشجار القصيرة المقزّمة المتسخة، وشعرت برصاصة تمر من جانب رأسي. لا أثر لوجود قناصة في المنطقة. انصب التركيز على الطريق. لزمنا الجانب الأيمن من الشارع الذي يوصلنا إلى البوابة رقم 12، ومنها إلى المنطقة الخضراء الآمنة نسبياً. وعلى يسارنا، كانت النيران لا تزال تحترق في الهيكل الملتوي لسيارة مفخخة. لم يكن لدينا وقت للتوقف.

وشعرنا بضغط في الهواء تبعه صوت انفجار قوي سمع من الخلف، تبعه اندفاع موجة من دخان رمادي اللون إلى السماء على شكل نبتة الفطر معلنة عن إرسال عراقي آخر إلى جنة الله على متن سيارة يابانية رخيصة. لقد فاتتنا هذه السيارة المفخخة بخمس دقائق.

عاد التركيز على الطريق الأمامي. سياج عال على جانبي الطريق. وظهر الارتباك على تي-بوي. كومة من القمامة غير ظاهرة المعالم على جانب الطريق. هل هي عبوة ناسفة؟ تابعنا المسير. إنها مخلفات انفجار وقع بالأمس.

الوقت الآن 2:41. «مرت من فوقنا الطائرات المروحية الصغيرة التي تشبه دمعة العين وهي تطير على ارتفاع منخفض جداً في حركة متناغمة متتابعة كأنها تؤدي عرضاً في مهرجان بهلواني جنوني. وكان باستطاعتي رؤية الطيار ستيف، ومعه اثنان من الرماة يحملان بنادقهما الآلية. إنهم ملائكة الحراسة التابعة لبلاك ووتر، انطلقوا لكي يوفروا حماية جوية لفريق الممبة دون أن يكلفهم أحد بذلك.

وصلنا إلى البوابة 12 المؤدية إلى المنطقة الخضراء، ولم ندخل بعد المنطقة الخضراء، فأمامنا سائق سيارة داس على فرامل سيارته، وانطلقت سيارة أخرى باتجاهنا. صاح غيكو «انتبه! راقب هؤلاء!» هل السائق مرتبك؟ هل يلبس ثياباً بيضاء؟ هل هو حليق؟ لا، بل هو سائق سيارة نقل بالأجرة يحاول الالتفاف حول الأزمة المرورية عند البوابة. ثم خرجنا من فوق جسر المخرج. الساعة الآن 2:42. بدأت المباني السكنية تظهر على يميننا ويسارنا، ورأينا شاباً من قوات المارينز يجلسون على الحواجز الإسمنتية، فلوحوا بأيديهم أن اعبروا. لسنا في أمان بعد. صاح جوان بجنود المارينز قائلاً لهم: إنه شاهد عراقيين يحشون رزمة ما في أنبوب معدني قبل أن نصل بوقت قليل.

تقدمنا عبر مسار الأولوية ثم توقفنا. تنفسنا الصعداء، ووضعت الأسلحة في وضعية الأمان، وها نحن الآن في المنطقة الخضراء. إنها الآن 2:43 وقد فرغنا للتو من السير على أخطر طريق في العالم مدة ثماني دقائق. وحين ذهب توول لتفقد العربات، شاهد آثار إصابة الزجاج الأمامي في عربة الممبة التي كنا فيها بعيار ناري. لا داعي للقلق. فسوف يفعلون ذلك غداً مرة أخرى. يوم جديد. مهمة جديدة.

